مشكلة الفن والقيود

للاستاذ علي محمد سرطاوي

ذكر الأستاذ المداوي في تعقيبات عدد الرسالة (٨٨٥) عن مشكلة الفن والقيود ما يأتي :

(في القصيدة الشعرية ، وفي اللوحة التصويرية ، وفي القطعة الموسيقية ، وفي كل عمل يمت إلى الفن بسبب من الأسباب ، يحسن بالفنان ، بل يجب عليه ، أن يكون له هدف ... هـذا الهدف لا بد له من تصميم ، ولا بد له من خط سير ، ولا بد له من خطوات تتبع خط السير وتعمل في حدود التصميم . ذلك لأن الفن في كل صورة من صوره يجب أن يعتمد أول ما يعتمد على تلك الملكة التي نسميها (ملكة التنظيم ، وكل فن يخلو من عمل هذه الملكة التي تربط بين الظواهر ، وتوفق بين الخواطر ، وتنسق المشاهد ذلك التنسيق الذي يضع كل شيء في مكانه ؛ كل فن يخلو من عمل هذه الملكة لا يعد فناً ، بل هو (فوضى فكرية) أساسها وجدان مضطرب ، وذهن مشوش ، ومقاييس معقدة ، أو مزلزلة . وابلغ دليل على تلك الفوضى الفكرية في بعض ما نشاهده من آثار تنسب ظلما إلى الفن ، هو تلك الحركة السريالية التي هبطت إلى ميدان الشعر كما هبطت إلى ميدان النحت والتصوير والقصة ، فعبثت بكل الأنظمة والمقاييس التي تطبع الفن بطابع التسلسل والوضوح والدقة والوحدة والنظام ... مثل هـذه الحركة في الفن ليس لها هدف ولا تصميم ولا خط سير ، وإنما هي أخلاط من الصور وأشتات من الأحاسيس لا يربط بينها رابط ولا تحدها حدود ، وشبيه تلك الحركة في جنايتها على معايير الذوق وموازين الجمال كل حركة أخرى تمضي بالفن إلى غير غاية ، هناك حيث تفتقر بعض الأذهان إلى تلك (الملكة التنظيمية) التي تلائم بين الجزئيات وتوائم بين الكليات ، وتفصل ثوب التخيل على جسم الفكرة بحيث لا ينقص منه طرف من الأطراف ولا يزيد ...

(نريد من الفنان سواء أكان شاعراً أم مصوراً أم موسيقياً أن يخلق نموذجه الفني على هدى تصميم يرسم اصوله وقواعده قبل أن يبدأ عمله وقبل أن يمضي فيه وقبل أن ينتهي منه ... نريد أن يكون بين يديه هذا التصميم الفني الذي يأمره بالوقوف عند هذا المشهد ، وبالتقاط الصورة من هذه الزاوية ، وبتركيز الأنفعال في هذه الموطن من مواطن الأثارة . عندئذ نوجد نظاماً ، وإذا ما أوجدنا النظام فقد خلقنا الجمال ، وإذا ما خلقنا الجمال فقد اتقنا بناء الفن . هذا التصميم الذي ندعو إليه بنظم هيكله العام أصول الأداء النفسي في الشعر والتصوير والموسيقى . هناك حيث تتوقف قيمة الفنان على مدى خبرته بتلوين الألفاظ والأجواء في الميدان الأول ، وتوزع الظلال والأضواء في الميدان الثاني ، وتوجه الأنغام والأصوات في الميدان الأخير . ولا بد للأداء النفسي في الشعر من هـذا (التصميم الداخلي) . لا بد من جمع أدوات العمل الفني وترتيبها في ذلك المستودع العميق . مستودع النفس ، قبل أن يدفع بها إلى الوجود كائناً حياً مكتمل الخلقة متناسق الأعضاء ... إننا ننكر ذلك الشعر الذي تكون فيه القصيدة أشبه بتيه تتطمس فيه معالم الطرق وتتمحى الجهات ، أو أشبه بمولود خرج إلى الحياة قبل موعده فخرج وهو ناقص النمو مشوه القسمات !) اهـ .

* * *

والذي يتم النظر فيما اقتبسناه من رأي الأستاذ الفنان المداوي يخيل إليه أن عمل الفنان لا يفترق عن عمل المهندس في كثير أو قليل ؛ ذلك أن المهندس يجلس إلى منضدته وأدواته الهندسية في زحمة الأرقام والابعاد والحجوم ، وتحت سيطرة العقل الواعي وحدة الذهن ، وهدوء الطبع ، يرسم على أوراقه التصاميم التي يطلب منه عملها ؛ من عمارات ، وجسور ، وطرق ، وأنفاق ، إلى آخر ما هنالك من أعمال هندسية ، حتى إذا ما فرغ من عمله المعقد الدقيق ، وحساباته التي تحطم الرأس ، نقل ما على الأوراق من إشكال إلى مسرح العمل ، وراحت تلك التصاميم تأخذ طريقها إلى الوجود رويداً ، رويدا ، كل ذلك وهو يراقب العمل مراقبة دقيقة يعينها عليها العلم ، وتسنده التجارب لئلا يقع في اخطاء قد تنشأ عنها كوارث تدمر حياة الآخرين وما يملكون ،

وتقضي على مركزه في المجتمع الذي لا يرحم من يمنى بالفشل الذريع .

والواقع أن الفنان ، من شاعر ، ومصور ، وموسيقي ، لا علاقة له بكل ماذكرناه . أنه يعمل في الجو الذي يندمج فيه الفنان بروحه مع السر الغامض في الطبيعة حيث يسقط العقل الواعي صريعاً تحت ضربات النفس الانسانية التي يكتبها ذلك العقل دائماً ؛ انه يعمل في منطقة التخدر الحسي ، تلك المنطقة التي لا تسيطر عليها غير العواطف ؛ تتجمع في اجوائها كما يتجمع السحاب ، من بواعث اثارة المشاعر عن طريق مؤثر خارجي حينا ، وعن طريق مؤثر يطل برأسه من رماد الذكريات المختفية في مخزن النفس العميق حينا آخر ، فإذا بتلك السحب ترسل الغيث مدرارا ، وإذا بتلك النفحات الآلهية تأخذ مكانها إلى الحياة وراء الكلمات في الشعر ، وبين الألوان والظلال في الصور ، وبين الانغام في القطعة الموسيقية .

ان الفنان ؛ الذي يزعم أنه يعمل من تلقاء نفسه ، ويضع التصاميم ويعد العدة سلفاً لعمله الفني ، أشبه ما يكون في نظر الحقيقة بذلك الانسان الذي تخيل إليه معلوماته القليلة أنه سيد العارفين ، وقديماً قال البشر في امثالهم : اخطر على الانسان من المعرفة الضئيلة ... وليس اخطر على الفنان والفنون من أن يزعم زاعمون أنهم ينتجون آثارهم الفنية وفق خطط مرسومة سلفاً ، فقد تنطلي تلك القولة على الفنانين فإذا هم جربوها أوصدت في وجوههم آفاق الالهام ، والطريق إلى سر الحياة الذي يغرفون منه ويحبحون في غمره .

إن السحب لا تلقي حمولتها من الأمطار على الأرض إلا إذا كانت اسباب نزول المطر مهيأة ؛ من درجة حرارة مواتية ، ورياح كافية ، وكذلك النفس الانسانية في الفنان لا تلقي حمولتها من الفن على الوجود إلا إذا كانت أسباب الابداع والاثارة مهيأة ، تلك الأسباب التي تحمله على اجنحة الانفعالات إلى عالم بعيد عن الترتيب والتنظيم .

إن القطع الفنية الخالدة التي يعتز بها كل فنان لم تكن من عمل إرادته ، وإنما كانت من عمل قوى خفية لا قدرة له على استحضارها كلما أراد ، وإنما هي التي تحمله على الإنتاج مرغما متى شاءت ، حتى إذا ما أصبح الأثر الفني بين يديه ، وعاد إلى وعيه ، تأخذه الدهشة في كثير من الأحيان مما يشاهد ولا يكاد يصدق عينيه ، وكثيراً ما يعجز عن إضافة حاشية صغيرة وهو في ظلال العقل الذي يرسم ويفكر ويفلسف .

إن النقد كثيراً ما يفلسف الحوادث ، ويزيف المنطق ، ويخدع العيون ببراعة تبعد عن الحقائق كثيرا . والذين يفلسفون الحوادث هم في الغالب يعجزون عن وضع الحوادث أو الفنون نفسها .

فهؤلاء المؤرخون الذين يفلسفون حوادث التاريخ كثيراً ما وكبوا متن الشطط وهم يتحدثون عن ابطال التاريخ وصدى أعمالهم وبواعثها ، ونتائجها وأسبابها . ومن المؤكد أن أولئك الأبطال لو اطلعوا على ما كتبه المؤرخون عنهم لأنكروا قسماً كبيراً منه لأنه لم يخطر لهم على بال .

ومثلهم أولئك النقاد الذين كثيراً ما حملوا الموتى من الشعراء ما لا يذكره الواقع عنهم ، كأبي نواس والمعري والمتنبي ...

ولعل قصة الحسن بن هانيء مع أحد المغنين في بغداد تلقي بعض الضوء على ما نحن بسبيله من حديث ؛ فلقد زعمت بعض كتب الأدب ، أن النواسي كان منصرفاً إلى قضاء بعض حاجات فمر بمدرسة سمع المعلم فيها يشرح إلى طلابه مطلع قصيدته المشهورة:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فانصت إليه وإذا به يمضي في شرحه على الصورة بما معناه : إن الشاعر أراد أن يشرك حاسة الذوق ، وحاسة السمع ، وحاسة النظر ، فإن اشتراك الحواس مجتمعة ابلغ في الشعور باللذة . ولم يتمالك النواسي نفسه لغرابة ما سمع فأطال عليه يؤكد له أن شيئاً مما ذكره للطلاب لم يدر بخلده وهو ينظم ذلك البيت .

ولسنا نشك في أن ملكة (التنظيم) التي وردت الإشارة إليها في قول الأستاذ العداوي لا تخرج في حقيقتها عن حصول الفنان على درجة من المعرفة ، لا كما يقال خطأ من الثقافة ، تعينه على إزالة الصدأ الذي يغطي الدر والجوهر والذهب التراكم

فى روحه ، وهذه المعرفة لها قيمتها وأثرها ، ذلك أنها تجعل نور الفن يشع وهاجا كنور الشمس من وراء آثار الفنان المهذب . أما الفنان غير المتعلم ، فيبدو الاضطراب ، وتطل الفوضى من آثاره . إن هذه الملكة فى الفنان المتعلم أيضاً تتوارى كالشهادة المدرسية التى توصل حاملها إلى باب الحياة فيلجه مجرداً منها ، حين ينتج الفن كما تصنع النحلة الشهد من الأزاهير .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول فى هذا الموضع من حديثنا ان الفنان يخلق ولا يصنع ؛ وان كثيراً من آثار الفنانين غير المتعلمين أقرب إلى روح الفن من آثار الأدعياء الذين امتلأت بهم الطرقات ، والذين يحملون اكبر الشهادات الجامعية ، ذلك لأن الفن من صنع الله وليس من صنع الإنسان .

إن الحركة السريالية والرمزية إلى جانبها ، وما قد يتبعهما من حركات فكرية ، ليست فى واقع الأمر (فوضى فكرية تنسب ظلماً إلى الفن) ؛ بل لعل فيها بعض الشىء الذى لم تستطع تذوقه أو ابصاره، وابصره وتذوقه بعض من سوانا . ان الذين يعرفون أسرار الذرة يعدون على الأصابع ، ولكن هل يعنى جهل الكثرة من البشر هذه الأسرار أن قوانين تحطيم الذرة مضطربة مشوشة لا يطمئن الفكر إليها . أن الطبيعة حولنا لغز من أسرار لا تحصى، وما نزال فى أول الطريق إلى التافه القليل من هذه الأسرار ..

اننا فى واقع الأمر ، نحب الشىء أو نكرهه ، لأسباب لا تمت للشىء المكروه أو المحبوب بصلة ؛ إنما مرد ما نشعر به نحوها من صدى إلى العادة والذوق .

لقد كان غاندى العظيم يقول لأتباعه وهو يوصيهم بالسلمين فى الباكستان : ليس كل ما تقولون وتعتقدون صوابا ، وليس كل ما يقول ويعتقد خصمكم باطلا ، هنالك شىء من الباطل فيما تعتقدون وتقولون ، وشىء من الصواب فيما يعتقد ويقول خصمكم.

ونحن كثيراً ما نرى الأشياء فى شكل خاص ، لا نلبث أن نراها تختلف عنه إذا تغير الزمان والمكان ، واختلفت زاوية النظر ، فلقد مات غليلو حرقاً بسبب آرائه حول دوران الأرض على يد محاكم التفتيش وهو يقول : ومع ذلك فإن الأرض تدور .

ليس من عمل الناقد ، ولا مهمة النقد أن يفرض رأيا بعينيه أو فكرة بذاتها قد يرى فيها غيره من قرائه أشياء وأشياء! كما ليس من عمل الناقد التحليق بجناح النسور بعيداً عن عالم الحقائق ، إلى عالم يموج ويضطرب بالرؤى الحالمة والخيال الجميل !

أترى هل حقيقة أن الجمال مرتبط بالنظام ؟ وإننا إذا أوجدنا النظام خلقنا الجمال ؟ لست أدرى ، وإنما يخيل إلى أن ايجاد النظام كثيرا ما يعجز عن خلق الجمال ؛ فالطبيعة جميلة لسبب واحد ؛ ذلك لأنها فوضى شاملة وإسراف فى عدم النظام .

والفن سر الطبيعة البكر ، لا يبلغ الذروة إلا إذا كان كالطبيعة نفسها . والانسان الضعيف الذى ما فتىء يمد بصره وراء الأسرار الغامضة فى صدر الطبيعة ، محملقاً فيها ، يخدع نفسه دائما ، وهو يدور حول الحقائق ولا يقوى على مواجهتها ، يفتش عن الأسرار والأسرار أمامه محملقة فيه ، تمد ألسنتها إليه من بعيد ومن قريب .

وبعد فإن الأستاذ أنور المعداوى . قد أرجد فناً جديداً فى النقد يستحق عليه شكر الذين يعشقون الأدب والفن من الناطقين بالضاد ؛ فقد قضى على تلك الاساليب المينة ، وراح يقيم على اطلالها صرحا من الذوق الرفيع ، والخيال الجميل ، والرأى السديد يعالج بكل ذلك مشاكل ما زلنا نتخبط فى دياجيرها ، وما زلنا ننظر إليها بعيون الموتى من البائدين ، ونفهمها بعقول أهل الاساطير .

وأنا واحد من آلاف المعجبين بالأستاذ العبقرى المعداوى ، اغتنم هذه الفرصة فأبعث إليه بأطيب ما فى قلبى من اكبار واعجاب بأدبه وفنه وذوقه ...

بغداد

على محمد سرطاوى
دار المعلمين الريفية

تاريخ الاسلام للذهبى

صدر الجزء الرابع ، ثمنه ٦٠ قرشاً

من أوسع دواوين التاريخ وأوثقها للباحث المحقق والمؤرخ المتثبت ، يسهب فى التراجم اسهاباً قد لا يوجد فى غيره .

يباع بمكتبة القدسى بجوار محافظة القاهرة (س.ت ١٦١٥)